المعطف

قصة بقلم يوسف الحيدري

البرد قارس ، يلسع اذنيه المحمرتين اللتين لم يستطع اخفاءهما تحت قبعته الصوفية ، وانفه الاحمر المتجمد يطل من وجهه المرتعش المتعب . انه اشبه ما يكون الان بتمثال ثلجي يتحرك ، لقد منح اخيرا اجازة لمدة ثلاثة ايام ، تقديرا لتضحيته في تلك الحادثة التي لن ينساها ابدا ، وعلى مقربة منه ، فوق الاريكة المتداعية ترك غدارته السوداء المحشوة التي بدت كحشرة غريبة ساكنة ، تقبع بصمت الى جانبه وكأنها جزء لا ينفصم عنه .

نفث بدخان سيجارته في سقف المقهى الخشبي المسود ، واحس بخدر لذيذ يسري في اوصاله ، ثم راح يفرك راحتيه الواحدة بالاخرى ليحس بمزيد من الدفء ، وكانت مدفأة عتيقة ضخمة تتوسط ارضية المقهى ، ومن خلال فتحة كبيرة في نهايتها كان يحدق في السنة اللهيب المتصاعدة وهي تأكل قطع الخشب المتكسرة ، وبعد أن عب انفاسا اخرى طويلة من سيجارته ، رفع رأسه المثقل ولامست عيناه وجه جندي اخر كان قد هده التعب وظهرت عليه علامات الخمول وراح يتثاءب وكأن النوم لم يقرب جفنيه منذ يومين ، كان رأسه يتدلى كثمرة جافة سوداء ويستكين فوق صدره للحظات ثم يرفعه ثانية .

عاد يحدق في الجمرات المحمرة التي تتحول بسرعة غريبة الى السنة متراقصة تلعق فضاء المدفأة وجدرانها الملتهبة .. ولاحت له صورة الرجل الشجاع الذي كان يضمه بين ذراعيه قبل أيام .. تذكر العريف « جابر » الذي سقط بالقرب منه داخل الخندق الذي كانوا يحتمون به من نيران الاعداء . ولقد حذره كثيرا من رفع جسده اكثر مما يجب عن الخندق ، غير ان شجاعته طغت على حذره .. وكانت زخة من رصاص بارد تخرق صدره العريض فتطرزه بفوهات حمراء صغيرة وكأنها اوسمة قرمزية ملتصقة بجلده الابيض الناصع .

كانوا ثلاثة هو والعريف جابر والجندي المكلف رشيد صالح. كانت الدماء تتدفق بغزارة من صدره العريض ، بينما عيناه الجاحظتان تقدحان شررا وحاول ان يستمر في القتال ، غير ان النزيف كان قد اشتد عليه ، فاشار بيد مرتعشة اليه ان يدعه وشأنه ويستمر هو والجندي رشيد صالح في القتال ..

كانت السماء مغطاة بسحب ثقيلة سوداء والريح شديدة ، باردة . كان عليه الان ان يجرجر جسد العريف جابر الضخم الى خلف التلة الصخرية الصغيرة ، ومن هناك وعلى مسافة عشرات الامتار الى حيث تتناثر خنادق متروكة فارغة رحل عنها الاعداء مذعورين تحت نيران القوات المتقدمة ، من هناك الى اقرب مركز طبي للاسعاف العاجل . عليه اذن ان يقطع مسافة نصف كيلومتر او اكثر قليلا ، معرضا نفسه لوابل القنابل والرصاص الذي لا ينقطع من مواقع العدو ، لا يزال يتذكر جيدا عيني العريف جابر نصف المغلقتين اللتين اخذ الشعاع اللامع الذي كان يشع منهما يخمد تدريجيا .. ووجهه المليء بالحماس والنشاط والحيوية اضحى اصفر فاقعا ، وراح فكه الصلب يتدلى وكأنه على وشك ان ينفصل عن بقية وجهه الذابل ، وحاول ان يتكلم غير ان حشرجات انفاسه الثقيلة كانت تضغط صدره المزق فلا يطيق الافصاح عما يدور في ذهنه المكدود المشوش. عليه ان يصنع المستحيل ليحمي جسد رفيقه من رصاصات اخرى قد تخمد انفاسه الى الابد .

كان قد اسند العريف جابر الى جنبه الايسر وقد طوق بذراعه اليسرى جسده الثقيل وراح يجره بكل ما فيه من حيوية وقوة حتى استطاع اخيرا ان يقترب من حافة الصخور المحيطة بالتلة الصغيرة وبدأ يجرجره حتى انتهى به خلف التلة حيث أرقده على ارض رخوة تمتد طولا حتى الخنادق المتناثرة المتروكة .

عليه الان ان يستغل الدقائق الباقية في جرجرة رفيقه حتى بداية اول خندق ، ومن هناك وبعد مسيرة قليلة تطل جدران المركز الطبي ، حيث يكون في استطاعته اجراء الاسعافات الاولية العاجلة ، وبعد ذلك يمكن نقله بسهولة وسرعة الى المستشفى الكبير القائم في مدخل مدينة « ك » الصغيرة ، شبه العسكرية .

حدق في وجه العريف « جابر » الساكن بذهول .. كان فمه قد التوى ، اما فكه فقد تدلى اكثر ، واستطاع ان يسمع حشرجاته الثقيلة. كانت الدماء قد غطت معظم جسده المشلول ، وتناثرت بقعا كبيرة حمراء متجمدة على معطفه الصوفي الثقيل وسرواله وراحت بقع اخرى تتجمد فوق جوربيه ، وحتى حذاؤه العسكري الاسود الثقيل لم يسلم من نقاط صغيرة متناثرة .

صاح فيه بغتة بعد ان غمره خوف مفاجيء :

ـ عريف جابر .. عريف جابر .. هيا .. هيا .. لقد اجتزنا التلة الصخرية الآن .. ولم يبق سوى ان نصل الى جذع الشجرة الوحيدة هنالك .. عند الخنادق التي تبدو الآن بوضوح من هنا .. هيا انظر يا عريفي .. سوف تصل .. ما عليك الا ان تتحمل قليلا .. هيا يا عريفي الشجاع .. انت لن تموت ابدا .. لا يا عريفي انت لن تموت ... لن تموت ..

كان العريف جابر الآن يغرق في صمت عميق .. وبعد قليل استطاع وبجهد كبير جدا ان يفتح عينيه قليلا واخذ يحدق من خلال ضباب كثيف في ملامح رفيقه ، الذي غمرته فرحة جنونية وهو ينتظر بلهفة قاتلة سماع صوته ، كلمة واحدة فقط تشفي غلته ، بدل هذه الحشرجات المرعبة .. واخذ يمسح براحته الباردة وجه العريف جابر المعروق ، وهاله ان تلسع يده حرارة راحت ترتفع بمرور الوقت .. وأيقن ان رفيقه لا محالة هالك اذا لم يسرع به الى المركز الطبي ، وان ضياع لحظة واحدة دون السير سوف يلحق الضرر به ويقربه من حافة الموت .

وقبل أن يستعد لحمل جسد رفيقه، طافت في ذهنه فكرة. وسرعان ما راح ينزع المعطف الصوفي الثقيل عنه ورماه بعيدا هناك في اعماق السهل المترامي وراح يزحف مسندا رفيقه الجريح الى جنبه الايسر ، وتوقف قليلا بعد ان سار مسافة قصيرة حين أحس بشيء ساخن لزج يملأ كفه . وحين حدق فيها ، كانت قطعة حمراء ملتهبة راحت تتساقط منها قطرات من دم رفيقه الذي لم يكف لحظة عن النزف ، ولم يعبأ لاشارة من يد العريف المتدلية وهي تشير اليه بالكف عن المحاولة اليائسة . كان الآن قد خمد آخر صوت في جسده المزق حيث تحول

قصيدة للانسان

(الى الفدائيين العـرب)

ان تبعث أمجاد الانسان وتحرق استار الاحقاب
ان ينتفض الاحرار يجفف دمعا يسكبه الاحباب
وتحطم مبخرة الازمان لكي يروى ظمأ الصحراء
فلأن الصمت كسا المأساة بنغمته الصماء
ولان ظلال الاقدار
ذابت لما انهارت حجب الاسرار
فالارض الثكلى ترتقب الامطار
ونداءات الانسان تفجر غيمات الاحرار
فانساب دم الانسان ليحكي ملحمة ..
لم تكتبها الاشعار

***

والليل يحيل ضراعات الانسان
نغما يسري في أعماق الاحرار فتنتفض الاكفان
كي تبعث نيران الغضب الظمآن
فدم الانسان المسكوب على الخيمة كالانداء
يمحو استار الصمت وسفر مئات من خطب جوفاء
لا يبقي الا خطوة انسان
يذكي التاريخ ويبذر ملحمة الافكار
يرتاد الافق لعل دياجير الاجيال تذوب
منه فتسكت قهقهة الاسوار

***

ما أروع بشرى الانسان يموت بلا ابطاء
ليفجر للابناء
اكليل الظل ونبع الماء
ما أروع قبلة أم وهي تشير الى افق الابطال
فتكوّن في نبض الاطفال
حس الانسان وثورات الاجيال

فاس ـ المغرب

محمد الشيخي

الى مجرد قطعة ضخمة من جسد مسترخ ثقيل ، وقبل ان يصل الـى منتصف المسافة بين التلة الصخرية والخندق المتروك ، شقت صمـت الفضاء الذي دام لدقائق قليلة أصوات المدافع الثقيلة ، وراحت السماء تمطر زخات من الرصاص والدم ، وعلى مقربة منه كانت تتفجر الشظايا وتتناثر قطعا صغيرة مميتة ، كان عليه ان يسرع اكثر فاكثر .. وتوقف للحظة ونزع حذاء العريف جابر الثقيل ورمى كـل فردة الـى مكان ، وصفعت وجهه ريح باردة راحت تجمد حبات العرق الكبيرة التـي تغطي وجهه وتدخل عينيه حاجبة الرؤية عنهما ..

عب انفاسا رطبة من الهواء وملأ رئتيه ، واحس بانه اقوى عندمـا لاحت عن قرب اكياس الرمل المرصوصة على حافة الخنادق . ودون ان يعبأ بالشظايا المتطايرة حوله وامامه ، كان الآن يجرجر جسد رفيقه بكل ما فيه من حيوية ونشاط .

ساد صمت قصير بغتة ، توقف قليلا قبل ان تلامس يـده اكياس الرمال المرصوصة على حافة الخندق ، وبحركة سريعة جدا هـز جسد العريف الساكن هزة عنيفة وراح بعدها يجره الى داخل الخندق بحذر شديد وهو يدمدم دون وعي :

ـ ها قد وصلنا اخيرا الخندق .. يا عريفي .. ألم أقل لك اننـا سوف نصل الخندق ؟. لم يبق سوى القليل جـدا ويصل الرفاق .. اذ لا بد انهم قد رأونا الآن .. بعد ان اصبحنا قريبا جـدا منهم .. هيا .. يا عريفي .. ها .. كيف انت الآن ؟.. عريف جابـر .. عريف جابر .. عريفي .. هيا انظر اليهم جيدا من حافة الخندق .. انظـر كيف يفرون كالفئران المذعورة تحت قصف مدافعنا الثقيلة .. تأمـل يا عريف جابر .. كيف تتهاوى معسكراتهم وكأنها بيوت مـن القش .. لقد انتصرنا يا عريفي .. نعم ها هم جنودنا الابطال يزحفون .. عريف جابر .. عريف جابر .. هيا متع نظرك من مشهد النصر .. اواه مـا أروع اناشيد النصر .. عريف جابر .. عريفي عريفي ..

اخذ يهز جسد العريف الذي كان قد تحول الآن الى لـوح بارد ، وكان النزيف الحاد قد توقف تماما . ولمس الجسد بيد مرتعشة . كانت برودة شديدة تسري فيه .. وكانت عينـاه الجاحظتان نصف مغلقتين تحدقان فيه بمرارة وعتاب . كانت النظرات غريبة احتار في تفسيرها.. نظرات لن ينساها ابدا .. لم يعد يطيق احتمال تلـك النظرات بعد ، وامتدت يده المرتعشة لتغلق بحنان كبيـر جفنيه الباردتين ، ومسح العرق الغزير الذي يسيل على طول وجهه ويدخل عينيه ليمتزج مـع حبات دموعه الساخنة .

تلفت خلفه ومن حافة الخندق العميق استطاع ان يلمح في البعيد، وسط القفر المترامي معطف العريف جابر الملطخ بالدم ملقى في العراء وعلى مسافات متباعدة منه فردتا حذاء عسكري أسود .

الحلة ـ العراق

يوسف الحيدري